

حول كتاب:

الحجة في القراءات السبع للإمام ابن خلدون

محقق: عبد الحامد سالم مكرم أستاذ بجامعة الكويت
تأليف الدكتور عبد المحطي محمد بيومي

معرفة القراءات والعناية بها اذن :

اهمية البحث في القراءات في هذا العصر :

— لا تخرج عن طابع العصر .

— وهي في الوقت نفسه وسيلة من وسائل المعرفة والتفاهم بين شعوب الامة الاسلامية الواحدة ولذلك لم يخل عصر من عصور الاسلام من دراسة القراءات والحفاظ عليها وعلى العلوم المتصلة بها .

قد يخيّل الى بعض الناس ان البحث في القراءات السبع شيء لا يلائم هذا العصر المزدهم بالافكار العصرية والصراع بينها ، ولكن هذا التخيّل سرعان ما يتبدد اذا تفكرنا ان الصراع بين الاقطار والعقائد انما يذكر على ضرورة الحفاظ على مصادر الافكار وكتب العقائد .

ومن اهم جوانب البحث في علم القراءات هو الاحتجاج للقراءة بموافقتها لقواعد النحو واللسان العربي لان اى قراءة لا تثبت موافقتها لهذا اللسان لا تكون قراءة يعتد بها فضلا عن ان تكون قراءة على الاطلاق .

ولذلك اهتم العلماء ببحث الحجج النحوية للقراءات توثيقا لها .

فالشيوعية مثلا تعنى اشد العناية بكتب « كارل ماركس » و « فريدريك انجلز » وتنزل كتابي « راس المال » و « المانيفستو الشيوعي » منزلة القداسة ، وهي في الصين تفعل الشيء نفسه بالنسبة لتعاليم « ماو » حيث تعنى بها وتطبقها طبقات مختلفة وتضفي عليها الشروح والتفسيرات لتكون زادا لهم في الثورة الثقافية وصراع الايديولوجيات .

ومن ابرز الكتب التي عالجت هذا الجانب هو كتاب: « الحجة » لابي على الفارسي ، الذي وضعه شرحا لكتاب « القراءات السبع » لابن مجاهد الذي كان اول من سبغ السبعة وكان اليه المرجع في فن القراءات كما يقول ابن الجزري .

واذا كان الامر كذلك فان اولى الناس بالعناية بكتابتهم عناية شاملة لكل النواحي انما هم المسلمون الذين ورثوا الوحي من الله زادا لهم في كل عصر .

لكن كتاب ابي على الفارسي جاء — كما قال النقاد — طويلا ومطنبا الى حد ينفر العلماء فضلا عن القراء المتوسطين وقد انتقده تلميذه ابن ضبي حيث قال في كتابه : « المحتسب » : « فان ابا على رحمه الله عمل

هذه ناحية ، ومن ناحية اخرى فان اللقاء الاسلامي الذي بات ضرورة انما يدعو كل مسلم الى العناية بالقرآن الذي هو مجمع هذا اللقاء خاصة العناية بقراءته المتعددة التي تقرا بها الشعوب الاسلامية .

كتاب الحجة في القراءات فتجاوز فيه قدر حاجة القراء الى ما ينفو عنه كثير من العلماء « كما قال » وقد كان شيخنا ابو على عمل كتاب الحجة فاغضه واطاله حتى منع كثيرا ممن يدعى العربية فضلا عن القراء واجفاهم عنه ومع هذا الاطناب الذي عابه العلماء فان ابا على كان يعتمد في اللغة على القياس .

ورغم المختصرات التي وضعت لكتاب « الإجابة لابی على الفارسی » فان الحاجة مع ذلك ظلت ماسة الى كتاب جديد للاحتجاج للقراءات احتجاجا يعتمد على :

— الاختصار

— الرواية والسماع في اللغة .

زمن اجل هذا وضع الامام الحسين بن احمد بن خالويه (المتوفى بطلب سنة 370 هجرية) كتابه « الحجة في القراءات السبع » متحاشيا الانتقادات التي اخذت على كتاب الفارسی فاقامه على الايجاز وعلى اخذ اللغة من السماع .

وقد ظل هذا الكتاب مخطوطا مجهولا حتى سنة 1371 هـ حتى اخرجته وحققه الاستاذ المحقق الدكتور عبد المال سالم مكرم استاذ النحو العربی المساعد بجامعة الكويت ثم نشرته دار الشروق في بيروت في 388 صفحة من القطع الكبير .

والامام ابن خالويه له منزلته المرموقة في علوم اللغة قالوا عنه « كان اماما واحد افراد الدهر في كل قسم من اقسام العلم والادب ، وكان اليه الرحلة من الآفاق وكان آل حمدان يكرمونه » .

والدكتور عبد المال سالم من الرجال المخبرين في جد على الدراسات القرآنية لا ينتهي الى رأى الا بعد الترجيح الطويل واستقراق الذهنية في الاستنتاج كما تنبىء ابحاثه ومقالاته .

اما الكتاب فهو طلبه كل طالب في القراءات وقد استطاع مؤلفه ان يغنى به طالب الفائدة في اسرع وقت . لكن هنا قضية رئيسية وهى : هل هذا الكتاب — كتاب الحجة لابن خالويه — هو حقا لابن خالويه او ان نسبته الى ابن خالويه فيها مقال ؟

يقول الدكتور المحقق : « ان هناك سحبا من الشك في نفوس بعض المعاصرين من حيث نسبة هذا الكتاب الى ابن خالويه ودليلهم انه لم يرد في كتب الطبقات ان لابن خالويه كتابا يسمى كتاب الحجة وان فكسرت ان له كتابا في القراءات حملت اسماء مختلفة ولم يحمل واحد منها اسم الحجة ، وبعد جهد استغرق ما يقرب من عامين في دراسة هذا الكتاب ودراسة مؤلفات ابن خالويه استطعت ان اصدر حكى في ثقة لا تعرف التردد وباعيان لا يعرف الشك ان هذا الكتاب نسبته الى ابن خالويه صحيحة » .

ويستدل الدكتور المحقق على ثقة في صحة نسبة هذا الكتاب الى ابن خالويه بعدة ادلة يمكن تركيزها فيما يلي :

1 — تلمذة كل من ابي على الفارسی وابن خالويه لابن مجاهد ، واذا كان احد التلميذين هو ابو على الفارسی الف شرحا لكتاب استاذه ابن مجاهد فليس بدعا ان يؤلف التلميذ الآخر — ابن خالويه — شرحا لكتاب استاذه .

وقد ذكر ابن خالويه نفسه ان له كتابا في القراءات عند تعرضه لقوله تعالى « انعمت عليهم » — في كتابه اعراب ثلاثين سورة — وفي كتاب الحجة هذا التعليل الذى اثار اليه ابن خالويه في كتابه الآخر مما يثبت ان كتاب الحجة هو لابن خالويه وان عدم شهرة هذا الكتاب يرجع الى ان شهره الحجة للفارسی قد غطى عليه او ان الكتاب في القراءات فاستغنى بذكرها عن ذكر اسم الكتاب بالحجة .

2 — ان عدم ورود كتاب الحجة في الطبقات لا يعنى ان هذا الكتاب ليس لابن خالويه لان لابن خالويه نفسه كتابا نص هو عليها بنفسه وهى موجودة ومع ذلك ليست في الطبقات .

3 — ان كون الكتاب لم يشتهر باسم الحجة لا يقدح في نسبته الى ابن خالويه لان التسمية من عمل المتأخرين وحتى كتاب الحجة للفارسی لم يقدمه ابو على لبعض النولة تحت اسم الحجة .

4 — التنافس العلمى في عصر ابن خالويه يفرض عليه ان يؤلف كتابا في الاحتجاج للقراءات لان ذلك كان طابع عصرى .

5 — من اوضح ادلة التوثيق ان اسلوب الكتاب ومنهجه يتوافق تماما مع اسلوب ابن خالويه ومنهجه في كتبه الاخرى .

6 — ان الاعلام الذين سجلهم ابن خالويه في كتابه كانوا اسبق منه زمنا .

7 — تقارب بعض النصوص في مؤلفات ابن خالويه مع بعض نصوص الحجة ويقول المحقق « لا ابالغ اذا قلت ان هناك نصوصا بأسلوبها وكلماتها في هذه المؤلفات هي بعينها في كتاب الحجة » وفملا اورد المحقق ادلة وفقرات من كتب مختلفة لابن خالويه مقارنا بينها وبين كتاب الحجة .

8 — ان كتاب الحجة اقدم من حيث النسخ من الكتب الاخرى التي وصلت الينا لابن خالويه اذ هو نسخ سنة 496 هـ بينما كتاب القراءات نسخ سنة 600 هـ

الا ان الاستاذ « محمد العابد الفاسى » الاستاذ بجامعة القرويين في مقال له بمجلة اللسان العربى مجلد 8 ص 1 سنة 1390 هـ يناير 1971 صحيفة 521 — يشكك في نسبة الكتاب الى ابن خالويه كما يشكك في ادلة المدق على هذه النسبة على النحو التالى وحسب الترتيب الذى ذكرته :

1 — تلمذة ابن خالويه لابن مجاهد لا تكفى لاثبات النسبة .

2 — عدم ورود اسم كتاب اسم الحجة لابن خالويه في الطبقات « فان كتاب الحجة جدير بأن يذكر في اول قائمة كتب ابن خالويه لو صحت النسبة وحيث لم يذكر في كتب الطبقات ولا ذكر في باقى كتب ابن خالويه فهذا دليل على عدم صحة نسبته اليه » .

3 — يقول الاستاذ الفاسى ان النسخ العتيقة من الحجة لابی على الفارسى مكتوب بظهر اول ورقة من اجزائه بخط عريق في القدم « الجزء السابع من كتاب الحجة لقراء الامصار . الخ » فمن اين الجزم بأن ابا على الفارسى لم يسم كتابه بالحجة » .

4 — ان التنافس العلمى في عصر ابن خالويه لو بلغ ما بلغ لا ينتج حتمية ان يؤلف ابن خالويه في

القراءات وقد وقع التنافس في كثير من الفنون في عصره ولم يؤلف ابن خالويه في جميع تلك العلوم .

5 — ان الاحتجاج بأن اسلوب ونهج كتاب الحجة لابن خالويه متقارب مع اسلوبه ونهجه في كتبه الاخرى لا يصح لان اسلوب تلاميذ ابن مجاهد جميعا كان يتوخى الاختصار .

6 — ان الاستدلال بالزمن من الاستدلالات الواهية ومتى كان النقل عن اعلام سابقين في الزمان دليلا على نسبة كتاب شخص معين ما لم تتم ادلة خارجة على تصحيح هذه النسبة .

7 — ان المشابهة بين النصوص وتقاربها في المعنى لا تفيد شيئا في الواقع لان نصوص ابى على الفارسى نفسها تتقارب مع ما قاله النحويون المعاصرون للفارسى

8 — تاريخ النسخ لا يمكن الاعتماد عليه حيث ان النسخة عارية عن اسم الناسخ ولو ذكر لا يمكن البحث عنه ومعرفة وزنه زيادة على ان الخط ليس من الخطوط المتداولة في القرن الخامس الهجرى .

وينتهى الاستاذ الفاسى الى انه يميل الى ان هذا الكتاب احد المختصرات التى اختصر بها كتاب الحجة الاصلى قام به عالم مجهول .

وبعد تركيز ادلة المحقق وملاحظات الاستاذ الفاسى عليها على النحو الذى فعلت فلعل القارئ المتحقق يلقى معنى نظرة فاحصة على الادلة والملاحظات معا ، ولا ادعى اننى حكم بين الاستاذين الفاضلين فهما معا اكثر منى فضلا ولكننى هنا متخذ صيغة القارئ الذى يقرأ بعقله ويزن الدليل بالدليل ويتحرى وجه الحق للحق وحده مع شكرى العميق للمحقق والناقد لتاحتهما هذه الفرصة لى ولخدمتهما الفكر الاسلامى بمثل هذا الحوار الذى اصطنع اسلوب المناقشة الجادة الهادئة بعيدا عما يمكن ان يكون منافيا في امثال هذه المناقشات .

ولى على ما يقول الاستاذ الناقد ملاحظات :

1 — صحيح ان تلمذة ابن خالويه لابن مجاهد لا تكفى وحدها في اثبات نسبة الحجة الى ابن خالويه ولكنها يصح ان تكون عاملا مساعدا لا يمكن نفي اثره في

مثل هذا الجو العلمي استاذ يضع كتابا في فن واحد تلاميذه يضع شرحا على كتاب استاذهم فمن الطبيعي المعتاد حينئذ ان يتجه تلميذ آخر للمناقشة وللادلاء بدلوه في نفس الموضوع خاصة اذا عيب على كتاب الفارسي بانه طويل معتمد على القياس وجاء كتاب ابن خالويه مختصرا معتمدا على السماع .

2 — عدم ورود اسم الكتاب في الطبقات او قائمة كتب ابن خالويه ليس دليلا قاطعا على نفى النسبة لان الطبقات والفهارس ليست هي المرجع الوحيد في هذا الموضوع لان هذه الفهارس سقطت منها كتب كثيرة لمؤلفين كثيرين منهم ابن خالويه نفسه وغيره لان هذه الفهارس لا يمكن ان تحصى جميع ما كتب الكتاتيون ولان ما يحصونه ليس معصوما من يد الحائثات وما اكثر ما ضاع من كتب ومخطوطات قد لا يعلم بها احد.

3 — ان الكتابة على احدى النسخ العتيقة للحجة للفارسي لا ينهض دليلا على ان هذا الكتاب كان مسمى بهذا الاسم عند ما ظهر لأول مرة خاصة اذا راعينا قول المحقق ان مؤلفه الفارسي لم يقدمه لعرض الدولة تحت هذا الاسم فربما ظهرت التسمية بعد ظهور الكتاب بمدة.

4 — التنافس العلمي وعدم تأليف ابن خالويه في بعض الفنون التي راجت في عصره لا ينفي نسبة الحجة اليه لانه ربما كانت هذه الفنون التي لم يؤلف فيها اقل اهمية من حيث التنافس اما فن القراءات فكسان من الفنون المتقدمة في ذلك العصر والتي تقع حتما في بؤرة التنافس .

5 — قول الاستاذ الفاسي ان اسلوب تلاميذ ابن مجاهد ومنهجهم كان واحدا قول لا يستقيم مع ما ذكره النقاد من ان كتاب الحجة للفارسي مطول يعتمد فيه على اخذ اللغة بالقياس بينما الحجة لابن خالويه مختصر يعتمد على السماع في اللغة فكيف يكون اسلوب هؤلاء التلاميذ ومنهجهم واحدا ؟

6 — الاستدلال بالزمن من ناحية التحقيق ليس واهيا بل قد يكون قاطعا احيانا فكيف نعتد نسبة كتاب الى مؤلف مع ان هذا المؤلف يذكر اسم مؤلف آخر لم يكن

قد ولد بعد ان مراعاة الزمن في التحقيق امر بالغ الخطورة بل قد تتوقف عليه صحة التحقيق وعدمها .

7 — ان المشابهة بين النصوص بين مؤلفين لا تصل الى حد استعمال جمل بحذافيرها بنفس الحروف كما يحدث مع مؤلف واحد لكتابين .

8 — كون النسخ عارية عن اسم الناسخ لا ينفي ثبوت النسبة اما كون الخط ليس من الخطوط المتداولة في القرن الخامس فذلك محل اختلاف وجهات المحققين وعدم اتفاقهم والقطع بان هذا الخط من خط القرن الخامس او ليس فيه مسألة لا يؤخذ فيها برأى واحد ولو كان هذا الكتاب مختصرا لكتاب الفارسي لوردت فيه اشارة ما الى ذلك لكن ذلك لم يحدث .

وقد احس الاستاذ الفاسي ان هذه الملاحظات لا تنفي نسبة الكتاب الى ابن خالويه فقال : « كما لا يمكن ان ننفيه عنه نفيا قاطعا » .

من هنا فان العقل يرى ان هذه النسبة صحيحة تشبه الكتاب بكتب ابن خالويه واشترাকে فيها في جمل بعينها ولتصور الجو العلمي في القرن الخامس ووضع ابن خالويه العلمي في هذا العصر .

على ان الذي يقطع هذا الجدل كله حول نسبة الكتاب لابن خالويه ان مقدمة « تاج العروس » تنص صراحة على ان من المراجع التي اعتمد عليها الزبيدي في كتابه كتاب الحجة لابن خالويه واذا لم يكن كتابنا هذا موضع الحديث فآين كتاب الحجة لابن خالويه ؟ الا يكون ذلك النص قاطعا اقطع من ورود اسم الكتاب في الطبقات .

ولا يقلل بعد ذلك من اهمية الكتاب العلمية في حد ذاته وانه سد حاجة المكتبة الاسلامية في المادة التي الف فيها وقد سبق لآرثر جيفري ان حقق مقدمتين في علوم القرآن هما مقدمة ابن عطية ومقدمة ذكر انها لعالم مجهول فجهل المؤلف لا يقلل من قيمة ما الف .

جزى الله ابن خالويه ، والمحقق ، والناقد ، خير الجزاء ، واعان الله كل العاملين في حقل الفكر الاسلامي على امرهم وسدد خطاهم .